السلطان إبراهيم

فترة الحكم: ١٦٤٠–١٦٤٨

السلطان العثماني الثامن عشر

اسم الأب: السلطان أحمد الأول

اسم الأم: ماهبَيْكَر (كوسَم) سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،
٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٦١٥

سبب الوفاة وتاريخه: الخنق،
بتاريخ ١٨ أغسطس ١٦٤٨

العمر عند اعتلاء العرش: ٢٥ عاما

تاريخ الوفاة: ١٨ أغسطس/آب سنة ١٦٤٨

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول،
ودفن في مقبرة مصطفى الأول بالقرب من مسجد أيا صوفيا

أبناؤه: محمد الرابع، وسليمان الثاني، وأحمد الثاني، ومراد، وأورخان، وبايزيد، وجهانكير، وسليم، ومراد

بناته: أم كلثوم سلطان، وبيكان سلطان، وعاتكة سلطان، وقايا إسمهان سلطان، ورقية سلطان، وحفيظة سلطان، وعائشة سلطان، وجوهر خان سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان إبراهيم، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

السلطان إبراهيم هو الابن الثالث للسلطان أحمد الأول الذي اعتلى ثلاثة من أبنائه العرش. وقد قضى فترة إمارته بقصر "طوب قابي" حيث كانت البلاد تمر بفترة من الاضطراب الداخلي. فَقَدَ السلطانُ إبراهيم أباه السلطان أحمد وهو في الثانية من عمره، وراقب عن كثب معاناة السلطان مصطفى الأول النفسية، وسلسلةَ الأحداث المرتبطة بحالته النفسية البائسة. كما كان لخلع أخيه الأكبر السلطان عثمان الثاني وقتلِه في سن صغيرة جدا على أيدي جنوده أثرُه العميق على السلطان إبراهيم. وأدت به الأحداث التالية إلى الاعتقاد بأنه سيلقى حتفه سريعا؛ حيث لم يستطع أخوه السلطان مراد الرابع تولي سيادته الفعلية طوال السنوات التسع الأولى من حكمه، واضطر مراد الرابع إلى الخضوع للاجتماعات المُهِينة المرتجلة مع المتمردين من الغوغاء الذين كسروا بوابات قصر "طوب قابي" وأجبروا مرادا الرابع على تبني أسلوب يتسم بالوحشية والدموية المفرطة، وأخيرا قُتل إخوته الأكبرون منه بايزيد وسليمان وكاظم. ولكل هذا فقد عاش الأمير إبراهيم ينتظر اليوم الذي سوف يموت فيه أيضا، وهو ما أثر على نفسيته بشكل عميق لطبيعته الحساسة.

وبسبب وفاة أولاد أخيه مراد الرابع جميعا في حياة أبيهم، فقد بات الأمير إبراهيم الوريث الوحيد للعرش. وبعد سماعه أنباء وفاة السلطان مراد الرابع لم يُرِد إبراهيم مغادرة غرفته الخاصة ظنا منه أن تلك الأنباء ليست سوى جزء من مخطط يحاك ضده. ولم يصدق أنه السلطان القادم إلا بعد أن بَرهنت له أمه كوسم سلطان التي جعلته يرى جثمان أخيه الأكبر.

انقضت السنوات الأربع الأولى من حكم السلطان إبراهيم في سلام ونظام بفضل الصدر الأعظم "قرة مصطفى كَمَنْكَشْ باشا"، الذي كان يتصف بالنزاهة والاحترام والخبرة. ومقارنة بإدارة السلطان مراد الرابع ذات التوجه السلطوي، انتهج السلطان إبراهيم نهجا أقل قسوة وأكثر تسامحا، فكانت هناك فترة من السكينة. وتنم التعليمات التي أرسلها السلطان الشاب إبراهيم للصدر الأعظم عن أنه أولى اهتماما كبيرا بالدولة والصالح العام. وقد اعتاد السلطان إبراهيم الخروج في نزهات في أرجاء المدينة متنكرا، وأن ينبه الصدر الأعظم إلى الأمراض الاجتماعية التي تحتاج إلى معالجة سريعة تقوم بها حكومة أكثر فاعلية.

وبعد أربع سنوات تسبب إعدام كَمَنْكَشْ مصطفى باشا بأمر السلطان إبراهيم في شلّ نظام الدولة. وقام قوشي بك -المؤرخ الذي عاصر تلك الأحداث- بتسليم مذكرة أو رسالة للسلطان إبراهيم على غرار مذكرته السابقة التي وجهها للسلطان مراد الرابع، عاب فيها بشكل خاص على اللامسؤولية التي كانت تتسم بها مؤسسات الدولة، وانتقد نظام الشكاوى والوضع الراهن.

وبالرغم من أن السلطان إبراهيم كان يريد السيطرة على الإدارة مباشرة كأخيه مراد الرابع، إلا أن الاكتئابات والاضطرابات النفسية التي عاناها حالت دون

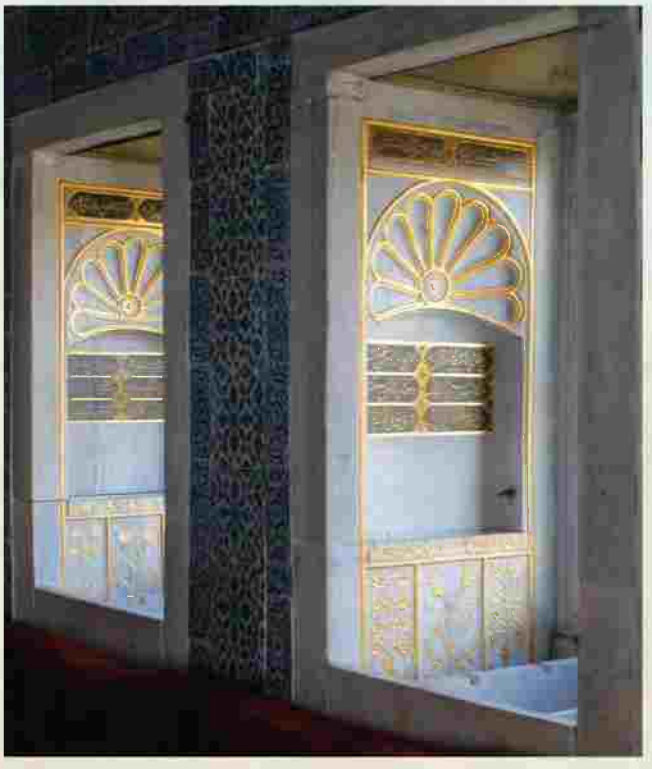

نافذة مزودة بنافورة رخامية لأحدى غرف الختان أنشئت لإبعاد الضوضاء عن الغرفة.

ذلك. وكان يُعرب عن هذه الاكتئابات والاضطرابات في خطوط كتبها للصدر الأعظم.

وفي عهده توجه الجيش العثماني إلى حصن أزوف على نهر أزوف الذي استولى عليه القوزاق الذين يعيشون على طول الأراضي الدنيا من نهر الدون. وعندما سمع القوزاق أن العثمانيين في الطريق دمروا المدينة وهربوا. وقام العثمانيون بإعادة فتح أزوف وشرعوا في تنفيذ خطة إصلاحات ضخمة بها.

ومن جهة أخرى بدأ أميرجوني أوغلو، حاكم يريفان القديم، في نشر بذور الخلاف بُعيد وفاة السلطان مراد. وكان قد سلم الحصن بسهولة للعثمانيين خلال حصارهم ليريفان ونال استحسان شقيق السلطان مراد الرابع في ذلك الوقت. غير أن

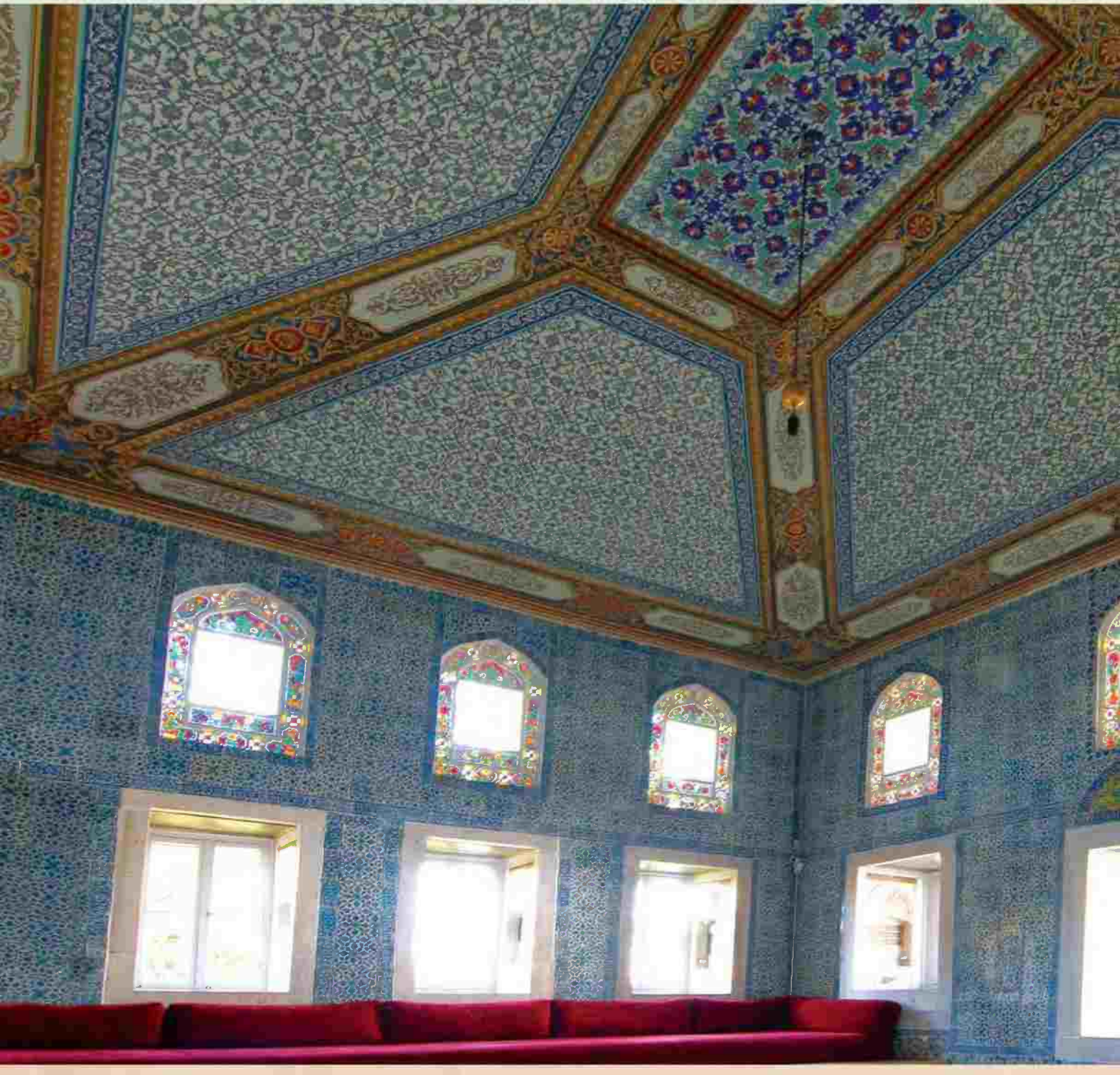

غرفة الختان في قصر "طوب قابي" بقرميدها النادر المجلوب من إزنيق، وتعد هذه الغرفة واحدا من إسهامات السلطان إبراهيم.

أميرجوني أوغلو أصبح وقحا وأصر على الرجوع إلى فارس. وقد حذره السلطان في عدة مناسبات، لكن إصراره على موقفه جلب غضب السلطان الشديد فأُعدم بعد فترة قصيرة.

تعرض سنبل أغا أحد كبار موظفي القصر ورفقته الكبيرة خلال رحلتهم إلى الحجّ بمكة إلى هجوم قراصنة مالطة الذين سرقوهم وقتلوا الكثيرين منهم، ووقعت تلك الحادثة بالقرب من جزيرة كريت. وقد أغضبت تلك الحادثة السلطان أيضا، مما أدى إلى إصدار أمر على الفور بإرسال حملة إلى مالطة. وأسدل السلطان ستارا من السرية التامة على حملة كريت القادمة، فيما كانت أصابعه تشير إلى مالطة في ذلك الوقت، وهو ما يعكس مواهبه الدبلوماسية آنذاك. وكانت كريت واحدة من أكثر الجزر أهمية من الناحية الإستراتيجية في البحر المتوسط. كما نجح في إبقاء الأمر سرا على السفراء الأجانب المقيمين بإسطنبول. ومنعت تلك المناورة الدبلوماسية أية محاولات لحشد قوات موحدة ضد العثمانيين من قبل العدو.

اختارت الإدارة العثمانية ضرب المستعمرة البندقية كريت تحديدا بسبب أهميتها الإستراتيجية في البحر المتوسط. وضرب العثمانيون في بادئ الأمر حصارا على هانْيا الواقعة في الساحل الشمالي للجزيرة. وعندما استسلمت مدينة هانيا في عام ١٦٤٥ بعد شهرين من الحصار أمر السلطان إبراهيم بإقامة احتفالات النصر استمرت ثلاثة أيام ولياليها. واستمر حسين باشا الذي عُين واليا جديدا على هانيا في العمليات، فاستولى على فورتيزا، قلعة ريثيمنو شرق هانيا. وتبين أن الفتح الكامل لجزيرة كريت مكلف وصعب للغاية، ولذلك استغرق دمج جزيرة كريت بكاملها في النطاق العثماني سنوات طويلة.

وحوصرت كانديا (هيراكليون الآن) أكبر مدن كريت أيضا، لكن البنادقة أقاموا حصارا بحريا على مضيق الدردنيل، أوقع العثمانيين في الحرج. وقد تعيّن على العثمانيين، إلى جانب الحرب، مواجهةُ حركات التمرد الجديدة التي اندلعت في إسطنبول والأناضول، وجاء إعدام الصدر الأعظم "كَمَنْكَشْ قرة مصطفى "باشا في عام ١٦٤٥ ليزيد الوضع سوءًا، فقد تسبب إعدامه في تفجر النزاعات والصراعات داخل القصر. فقد كان هناك صراع على السلطة داخل القصر بين الصدر الأعظم كَمَنْكَشْ قرة مصطفى باشا ويوسف باشا، وقد انضمت كوسم سلطان إلى هذا الصراع أيضا من وراء الستار. وفي نهاية الأمر عُزل السلطان إبراهيم في أعقاب انقلاب عسكري شديد التنظيم يوم ٨ أغسطس/آب سنة ١٦٤٨.

وعقب إعدام قرة مصطفى باشا حلّت الفوضى محلّ الاستقرار في الإدارة العثمانية. وبشكل عام أعقبت فترة من الفوضى حقبة السلام والنظام النسبيين السابقة. وقد اختل الأمن والنظام في عهود الصدور العظام الثلاثة "سلطان زاده محمد باشا"، وصالح باشا، وخاصة "هَزارپاره أحمد باشا" حيث قام هؤلاء بالتصرفات العشوائية البعيدة عن العدالة والإنصاف.

لوحة بفن المنمنمات تصور السلطان إبراهيم أمام كوخ الإفطار.

يعد كوخ الإفطار واحدا من بين إسهامات السلطان إبراهيم في قصر "طوب قابي"

وبدأ الجميع يلهثون وراء استغلال قوة الدولة في مصالحهم الشخصية من خلال مكائد ومخططات مختلفة.. فقد فعل هؤلاء كل ما يستطيعون لإبقاء السلطان بعيدا عن الإدارة، وشجعوه على الترويح عن نفسه والانغماس في الملذات وحياة الترف داخل أسوار الحرم السلطاني حتى يتسنى لهم التلاعب بالدولة، مما أدى به إلى التصرف على نحو متضارب وغير متوازن.. وقد تضاعفت تصرفات السلطان الغريبة بشكل خاص عندما كان أحمد باشا يشغل منصب الصدر الأعظم. فعلى سبيل المثال استغل أحمد باشا اهتمام السلطان بالفرو، ففرض ضريبة على فرو السمور. وزاد استياء الناس في المدن والأقاليم الرئيسية بسبب إبعاد السلطان إبراهيم عن شؤون الدولة وحثه على الترويح وحاولت أمه كوسم سلطان تحذيره لكنها أُجبرت لفترة من الوقت على ترك قصر "طوب قابي" والعيش في بستان إسكندر، وهو بستان ساحلي بإسطنبول. وكان التغيير المتكرر للكفاءات في مناصب الولاية والولاية العامة نذيرا بوقوع مزيد من المآسي.

في تلك الفترة أيضا تمرد "وَارْوَارْ علي باشا" والي سِيوَاس العام وتم كبحه بصعوبة. كان الصدر الأعظم مهتما بمصالحه الخاصة فقط، وقد دفع هذا الأمر إلى انتشار عدد من الشائعات المدمرة، ثم اندلع تمرد واسع النطاق ردا على أسلوب الصدر الأعظم العنيد والمتصلب.

نشب التمرد في البداية ضد أحمد باشا فقط، غير أنه انتهى بعزل السلطان إبراهيم وإحلال ابنه الصغير محمد الرابع مكانه. قام المتمردون المشاركون في الثورة بالقبض على أحمد باشا وإعدامه، ثم قطعوا جسده إربا في ميدان السلطان أحمد. ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى "هَزارباره" "أي "المقطع قطعا". وفي نفس الأثناء احتُجز السلطان إبراهيم في القصر التوأم بجناح الحريم في قصر "طوب قابي". وبعد انتهاء مراسم الاحتفال الخاصة باعتلاء ابنه محمد الرابع ذي السبعة أعوام، كانت تُسمع صرخات السلطان إبراهيم المدوية في أرجاء جناح الحريم، مما أثار شفقة الناس هناك وحزنهم في نفس الوقت. ثم قام نفس المتمردين الذين نصبوا محمد الرابع محل السلطان إبراهيم بإعدام إبراهيم في مقر احتجازه في القصر لشكهم في أنه قد يعود للعرش مرة أخرى.

وقد سُجل النقاش الأخير للسلطان السابق إبراهيم مع بعض رجال الدولة الذين زاروه في غرفته قبل

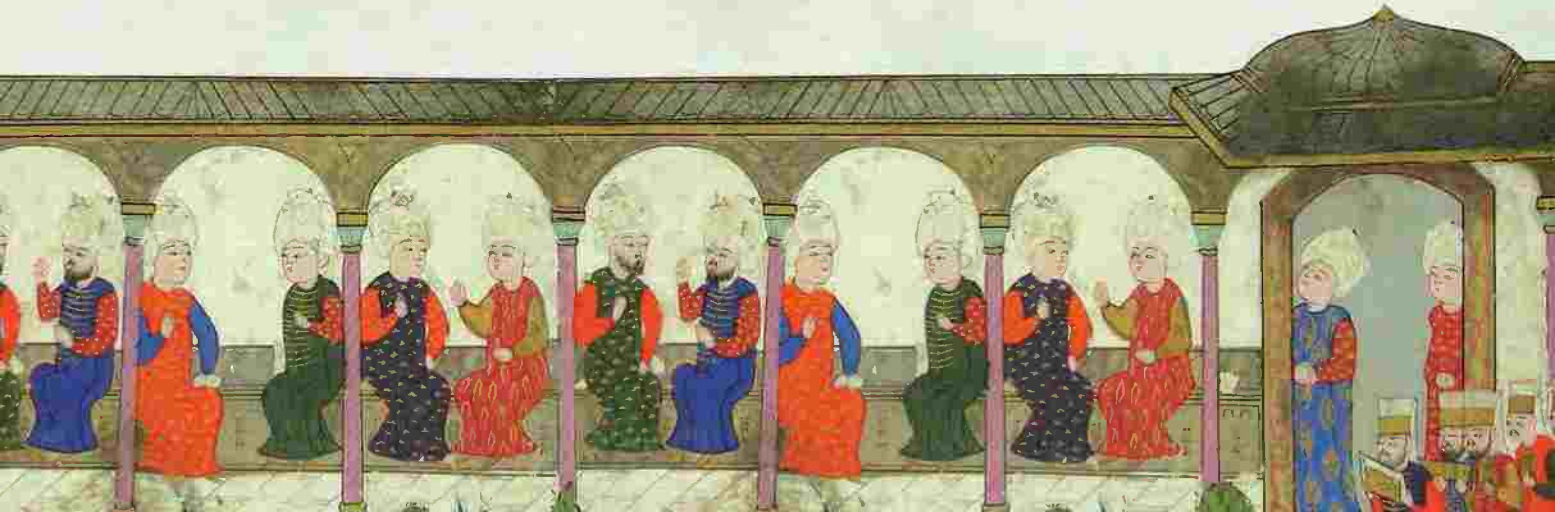

إعدامه في عدة مصادر معاصرة؛ حيث دافع إبراهيم عن نفسه ضد الاتهامات بالدليل المقنع والقاطع ولكن دون جدوى. ودُفن جثمان السلطان المتوفى في مقبرة مصطفى الأول بالقرب من مسجد آيا صوفيا في ١٨ أغسطس/ آب سنة ١٦٤٨.

واستمرت السلالة العثمانية من خلال نسل السلطان إبراهيم. فقد اعتلى ثلاثة من أبنائه العرش العثماني وهم محمد الرابع وسليمان الثاني وأحمد الثاني، بينما توفي الآخرون في سن صغيرة. وفي وقت لاحق مع نهاية الدولة العثمانية وصف السلطانَ إبراهيمَ بعضُ مؤرخي عهد المشروطية الثانية (١٩٠٨-١٩٢٢) بالمجنون، حتى إنهم بدؤوا في تسميته "السلطان إبراهيم المجنون". ورغم مروره بمحنة نفسية، وبخاصة خلال طفولته، فإن حالته العقلية لم تكن معيقة له مثل عمه. وكان السلطان يعبر أحيانا عن كربه النفسي الذي كان يعتريه من خلال كتاباته لصدره الأعظم، وتذكر لوحاته الخطية أزماته النفسية وإصاباته المتكررة بصُداع عنيف. ورغم كل ذلك فقد حاول السلطان إبراهيم جاهدا إدارة شؤون الدولة، وحضور اجتماعات المجلس السلطاني، والتدقيق في القرارات. وكان يريد معرفة أكثر بالأحداث الجارية على أراضي الحدود العثمانية. لكن عقلانية السلطان إبراهيم، التي ظهرت في سنواته الأولى على العرش، تلاشت لاحقا لعدة أسباب متشابكة، من بينها تدهور صحته، وزيادة تعقيد مسؤولياته بالدولة، وتقديم رجال الدولة للمشورة والعمل وفقا لمصالحهم الشخصية، وتدخُّل نساء القصر في شؤون الدولة وبخاصة السلطانة الوالدة.

ومما يشتهر عن السلطان إبراهيم أنه في إحدى زياراته وهو متنكر للشوارع شاهد طابورا طويلا جدا أمام أحد المخابز. وفور عودته للقصر كتب مرسوما سلطانيا لصدره الأعظم ينتقد فيه بشدة ما رآه، ويأمره باتخاذ التدابير اللازمة كي لا يضطر رعاياه إلى الانتظار بهذا الشكل للحصول على السلع الأساسية.

كان الاقتصاد العثماني جيدا إلى حد كبير خلال السنوات الأولى لحكم السلطان إبراهيم، حيث كان سلطانا سخيا، بل إن العثمانيين شهدوا خلال تلك السنوات فترة من الرخاء الاقتصادي. ومن الواضح أنه لو كان إبراهيم قد أُرسل إلى ولاية إحدى الأقاليم لاكتساب الخبرة الإدارية اللازمة، بدلا من مكوثه بالقصر ومروره بعدة أحداث مأساوية خلال طفولته، لصار سلطانا مختلفا على الأرجح، ولصار أقدر بكثير على تغيير مسار التاريخ العثماني على النحو الذي كان يريده.